عبد الكريم آل نجف

الحجُّ والسلامُ العالمي

يمثل الحج محوراً مهماً من محاور النهج السلمي للإسلام، بل يمكن عدّه المحور الأساس منها. وتأتي هذه الأهمية المتميزة له من جهتين:

الأولى: أن الحجّ بشعائره، ومناسكه، وأذكاره، يمثل جزءاً مهماً من النظام التربوي والروحي في الإسلام. وهذا النظام يمثل المرحلة الثانية في النهج السلمي للإسلام. ومن المعلوم أن هذا النظام يحظى بأهمية خاصة في مختلف جوانب الحياة الإسلامية؛ لأنّه هو الذي يمنح الإسلام الفاعلية، والتأثير، والايجابية العملية لمناهجه في هذه الحياة. فأهمية الحج للنهج السلمي في الإسلام جزء من أهمية النظام التربوي والروحي للحياة الإسلامية ككل، وقد وردت في تأكيده أخبار كثيرة، حتّى عدّ أحد أركان الإسلام الخمسة، وحكم على تاركه أن يموت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً[1].

الثانية: أن المغزى السلمي أساس العديد من شعائر الحج ومناسكه، بحيث قد لا نرى قضية إنسانية يخدمها الحج أكثر من قضية السلم، ولا نرى فريضة إسلامية أخرى تخدم قضية السلم أكثر من الحج. وعندما يتّضح ذلك، سيكون بإمكاننا أن نقرّر باطمئنان أن الحج في بعده السياسي فريضة ذات مفهوم سلمي شديد التركيز. وهو مفهوم يتكون من عدة أبعاد مهمة في الحج، هي:

أولاً: البعد الزماني:

فالحج فريضة مؤقتة بزمان خاص، وفي شهر خاص، هو شهر ذي الحجة، وهو أحد الأشهر الحرم، ويتوسط شهرين آخرين منها هما ذو القعدة ومحرم، والرابع منها هو شهر رجب، وهي الأشهر التي حرّمت الديانةُ الإبراهيمية القتالَ فيها، وأمضى الإسلامُ حرمتها.

إن تحريم القتال في هذه الأشهر على المسلمين، وإلزامهم قبل غيرهم به، يمثل محاولة رائعة لتجفيف دواعي الحرب، وتنشيط أسباب السلام في المجتمع الإنساني، لفترة زمنية تساوي ثلث السنة، يقضيها المجتمع الإسلامي في عملية تربوية إيجابية، هدفها السلام من خلال جانبين: الأول سلبي: وهو التخلي عن دواعي الحرب. وذلك بتحريمها في هذه الأشهر، والثاني إيجابي: وهو التحلي بروح السلم، واحترام الأمن، وحق الحياة للآخرين، وذلك عبر الأبعاد السلمية الأخرى في الحج. الذي تهيمن أجواؤه النفسية الايجابية على المجتمع الإسلامي كلّه مدة انشغاله بالحج، منذ الأيام الأولى لسفر الحجاج إلى الديار المقدسة، وحتى أيام عودتهم إلىٰ أوطانهم.

إن مبدأ الأشهر الحرم يجسد نزعة سلمية عميقة لا تجعل الإسلام يكتفي من مجتمعه بأن يكون مسالماً ومحافظاً على الأمن فحسب، بل لابد له من أن

يكون قدوة وداعية في هذا المجال، انسجاماً مع القاعدة التوحيدية الكبرى التي يقوم عليها هذا المجتمع، والتي تجعله ركيزة السلم في المجتمع الإنساني كلّه، فحيث ينحصر التوحيد الحقيقي بالمجتمع الإسلاميّ يكون هذا المجتمع قاعدة السلم في المجتمع الإنساني.

من هنا فإنّ مبدأ الأشهر الحرم يمثل دعوة إلىٰ إقامة نظام أمني عالمي. فإنّ التمسك بهذا المبدأ من طرف واحد، مهما كان شديداً، لا يحقّق الهدف المطلوب، فلابد من إقامة التزام دولي متبادل بهذا المبدأ. وهكذا فإن الإسلام أوقف مجتمعه على أرقىٰ درجة يمكن أن يلتزمها لصالح السلم، فيما علق درجة التحريم المطلق للحرب في الأشهر الحرم على ظهور نظام أمني عالمي تتبادل فيه الأطراف الدولية المختلفة الاحترام لمبدأ الأشهر الحرم. ولذلك أجاز للمسلمين القتال في هذه الأشهر إذا كانوا في حالة دفاعية، أو كان خصمهم ممن لا يرى لهذه الأشهر حرمة. وهما شرطان ينسجمان تماماً مع ذلك المبدأ، لأنهما يتفقان معه على محاربة العدوان، وتضييق فرصه. فليس من مفهوم السلم ـ بل مما يخالف السلم ـ أن يُمنع المظلوم من استرداد حقه، أو يقال لأحد طرفي النزاع: كُفَّ عن القتال في هذه الأشهر، واسمح لعدوك أن يقضي عليك فيها. فإنها بهذه الصورة ستكون أشهر العدوان، لا أشهر الحرم.

وهكذا فإنّ مبدأ الأشهر الحرم هو مبدأ المسلمين الدائم حتّىٰ يثبت عدم إيمان العدو به، لذلك ﴿**الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص**﴾ فكما لا حرمة لدم القاتل ظلماً وعدواناً لهدره حرمة دم المقتول، كذلك لا يمكن التزام حرمة شهر لا يرى العدو حرمة له. ولذلك ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**﴾ دون أن تتجاوزوا حدَّ القصاص العادل، أو تشتط بكم نزعة الانتقام إلىٰ حدود الظلم ﴿**واتقوا الله**﴾ فإنّ الشرَّ لا يعالج بالشر ﴿**واعلموا**

أنّ الله مع المتقين﴾[٢]. وتأكدوا من سلامة مواقفكم، وخلوها من الشرِّ والعدوان.

ويبقى الإسلام يوالي تأكيداته على المسلمين لكي يبقوا قاعدة للأمن والسلم في الأرض. قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام﴾[٣].

لأنّ مبدأ الأشهر الحرم نابع من قيمومة هذا الدين على الناس، وهمينته على شؤونهم، وصلاحيته لقيادة حياتهم[٤]. قال تعالى:

﴿إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾[٥].

وبما أن هذا المبدأ لا تكمن أهميته في نفسه فقط، كقانون دولي. وإنّما مرتبط بفريضة الحج التي تمنحه الفاعلية والقدرة على التأثير من خلال المحتوى الروحي والعرفاني لهذه الفريضة. لذلك فقد شنّ القرآن الكريم جملة شعواء على المشركين لتصرفهم في الحكم الشرعي من خلال النسيء، الذي كانوا يقومون به، إذ كانوا يستبيحون حرمة أحد الأشهر الحرم، ويعوضون عن ذلك بإسباغ الحرمة على شهر آخر يختارونه، فلا يقاتلون فيه. قال تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ...﴾[٦].

وما أحرى العالم في هذا اليوم أن يتمثل خطى الإسلام، ويجعل مبدأ الأشهر الحرم قاعدة من قواعد الحياة الدولية فيه، لكي ينعم بالسلم في ثلث حياته، ويوفر على نفسه الإمكانات الجيدة لمعالجة قضايا السلم في الثلثين الآخرين منها.

ثانياً: البعد المكاني:

وترتبط فريضة الحج كذلك بمكان خاص يتّصف بالحرمة والقداسة، وهو

الحرم المكي الذي جعلته السماء منطقةً آمنةً منزوعة السلاح، ومعزولةً عن الحروب. قال تعالى:

﴿**وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً**﴾[٧] فهو قطعة أمن وأمان، لا أنه مكان يتصف بالأمن والأمان فحسب. وهذا من أبلغ التعبير وأدقه. قال تعالى:

﴿**فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومَن دخله كان آمناً**﴾[٨].

وقد انعكست عليه صفة الأمن نتيجة لعلاقته بالتوحيد، وكونه عاصمته ومركزه في الأرض. وإذا كان البعد الزماني محدّداً من جهة الزمان، ومطلقاً من جهة المكان، فإنّ البعد المكاني بعكسه محدّد من جهة المكان، ومطلق من جهة الزمان. فحرمة الحرم المكي خاصة بأرض معينة، ولكنها ليست خاصة بزمان معين. ويلتقي البعدان عند حلول الأشهر الحرم في الحرم المكي لتتأكد حرمة القتال، وتتعزّز الحاجة إلى السلم، وتأتي فريضة الحج لتزيدهما حرمة وتأكيد السلم، وليبلغ الشعور السلمي في المجتمع المسلم ذروته وأوجه. ويفترق البعدان بعد ذلك في الباقي من أشهر السنة، حيث يجوز القتال في كلّ أرض. وفي الباقي من الكرة الأرضية حيث يجوز القتال في كلّ وقت.

وللعلة نفسها التي ذكرت سابقاً في البعد الزماني، نجد أنّ الإسلام لم يجعل حرمة القتال في الحرم المكي بصورة مطلقة، فاستثنى القتال الدفاعي. وهذا الاستثناء يجسّد الكمال في نظرية السلم والأمن في الإسلام، لأنّ التحريم المطلق للقتال في الحرم المكي، يعني فسح المجال لظهور فرص واسعة من العدوان والظلم. وهذا ما يتنافى مع مبدأ الحرم المكي.

قال تعالى: ﴿**ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتّىٰ يقاتلوكم فيه**﴾[٩].

وهذا يعني أنّ مبدأ الحرم المكي يمثل دعوة إسلاميّة لقيام نظام عالمي، تتبادل فيه الأطراف الدولية الاحترام لمبدأ الحرم المكي من جهة، ولقيام مجتمع

إسلاميّ يقوم بدور القدوة الحسنة في هذا المجال من جهة ثانية.

وقد كان لهذه الدعوة أثر بالغ في الحياة الاجتماعية للمسلمين. فقد كان المرء يرى قاتل أبيه، أو أخيه في الحرم المكي فلا يتّخذ ضدّه إجراءً، مع شدة التزام العرب تقاليد الثأر. وهذا ما يمكن عدّه دليلاً على إمكان أن يلعب مبدأ الحرم المكي دوراً مماثلاً على صعيد الأمن والسلم في العالم.

ولتأكيد الأهمية الأمنية لمكّة المكرّمة، عدّ القرآن الكريم كلّ لون من ألوان الظلم في مكة إلحاداً، وعدّ أيضاً الهمّ بذلك الظلم بمثابة القيام به من حيث استحقاق العقوبة عليه، بينما لم يأخذ بهذه الدرجة من الشدّة في البقاع الأخرى من العالم. وذلك ما يحمل دلائل واضحة على ضرورة عدم الاكتفاء بمرحلة سلم الجوارح، بل لابدّ من أن يكون المسلم في مركز التوحيد، وقد وصلت عنده المشاعر السلمية والأمنيّة درجة من النضج بحيث تستولي على قلبه أيضاً، وتمنعه من أن يخطر عليه الهمّ بالظلم والرغبة فيه.

فإذا كان المسلم في باقي الأرض هو مَن سلم الناس من يده ولسانه، فإنّ المسلم حينما يكون في مكّة المكرّمة يطلب منه أن يسلم الناس من يده ولسانه وقلبه، وأن يبلغ مرحلة سلم الجوارح والجوانح؛ لأنّ النزوع نحو السلم يجب أن يتناسب مع درجة التوحيد التي يصل إليها المؤمن. ولما كان المطلوب من المسلم أن يكون في مكة قد وصل إلى ذروة ما يمكنه الوصول إليه من التوحيد، فلابدّ من أن يكون نزوعه السلمي قد بلغ أوجه أيضاً. وهذه هي المعادلة التي جعلت الحرم المكي يمتاز على باقي بقاع الأرض بهذه الأبعاد السلمية المركزة.

قال تعالى: ﴿**ومَن يرد فيه بظلم بإلحاد نذقه من عذاب أليم**﴾[١٠].

قال ابن مسعود: ما من بلد يؤاخذ العبد فيه بالهمة قبل العمل إلّا مكّة. وتلا هذه الآية ... ونسب إلى الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله:

«كلّ ظلم إلحاد، وضرب الخادم في غير ذنب من ذلك الإلحاد»(١١).

وقال عليه السلام: «كلّ ظلم يظلمه الرجل نفسه بمكّة من سرقة أو ظلم أحد أو شيء من الظلم، فإنّي أراه إلحاداً، ولذلك كان يتّقي الفقهاء أن يسكنوا مكّة»(١٢) وقد سار العرب قبل الإسلام على تقديس مكّة واحترامها، ومنع وقوع القتال فيها، وكان شاعرهم يقول:

إنّ الفضول تعاقدوا وتعاهدوا أن لا يقرّ ببطن مكة ظالم

ولم يكن لبيوت المكيين مصاريع بفضل الأمن الذي كان تنعم به مكة، والتزام المكيين واجب الضيافة تجاه الوافدين عليهم من الأقطار الأخرى.

إنّ عناية الإسلام بمنطقة معيّنة من العالم، وتحريمها عسكرياً، وعزلها عن السلاح، ثمّ ربط الحج كفريضة ذات مضمون سلمي بها، حيث تفد عليها سنوياً جموع هائلة من الحجيج، ومن ورائهم قلوب المسلمين كافة، تتطلع إلى هذه المنطقة روحياً وترتبط بها معنوياً في أيام الحج. تعكس مستوى الرقي في هذا الدين، ومدى اهتمامه بالسلم والطبيعة العملية لما يتّخذه من اجراءات في هذه المضمار.

فإذا كانت الأرض كلّها مفتوحةً أمام الحروب والنزاعات التي تمزق المجتمع الإنساني، فلماذا لا تعزل من الكرة الأرضية منطقة تعدّ منزوعة السلاح، يحرم فيها القتال والعدوان؟ وإذا كانت أيام السنة كلّها يمكن القتال فيها، فلماذا لا نعزل منها أربعة أشهر حرم تكون فرصة أمام الطرفين للتثبت من براءتهم فيما يتّخذونه من مواقف قتالية؟ ثم يلتقي الزمان الحرام بالمكان الحرام في فريضة الحج التي تزيدهما حرمة، وتجعل الشعور السلمي يصل ذروته، وتحوّل مكة إلى مركز لبث الروح السلمية في العالم، وخلع النزعة العدوانية عنه. وما أحوج البشرية في هذا الزمان ـ وفي كلّ زمان ـ إلىٰ بقعة من الأرض تتخذها مركزاً لحلّ

الصراعات الدولية المختلفة.

وإذا كان الغرب قد اتّخذ من جنيف مركزاً لعقد المؤتمرات الخاصة بالسلم والأمن، وفضّ النزاعات الدولية واتّخاذ القرارات والمواقف اللازمة لدعم الأمن العالمي، فإنّ الإسلام قد سبق الغرب في هذا المجال. بل إنّ إبراهيم الخليل عليه السلام ـ الذي رفع القواعد من البيت، وطلب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعل مكة بلداً آمناً قبل أربعة آلاف سنة ـ يعدّ المؤسس الأوّل لهذه الفكرة. قال تعالى:

﴿وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾(١٣).

على أنّ اختيار الإسلام لمكة أرجح بكثير من اختيار الغرب لجنيف، فإنّ القانون وحده لم يكن ـ يوماً ـ كافياً لحلّ مشكلة من المشاكل الإنسانيّة، فكيف إذا كانت هذه المشكلة هي مشكلة الأمن العالمي، التي ليست هناك مشكلة أعقد منها في دنيا السياسة؟ فلا مناص، إذن، من وجود قاعدة روحية أخلاقية تملأ الحياة الإنسانيّة بإشعاعاتها الإيجابية لأي حلّ قانوني يفترض، لتعمل بشكل إيجابي يخدم قضية السلم العالمي، إمّا في عمق وجدان أهل الحلّ والعقد من أطراف الصراع، وإمّا في وجدان الجماهير التابعة لهم؛ لتكون قوّة سياسية ضاغطة عليهم بهذا الاتجاه. وليس هناك من يضمن وجود هذه القاعدة الروحية الأخلاقية غير الإسلام، كما أنه ليس في دنيا الإسلام مدينة يمكنها أن تستثير المشاعر الروحية والأخلاقية، وتجعلها فوّارة متدفّقة ومؤثرة، كمكّة، مركز التوحيد، وموطن الكعبة، التي خلقها الله ـ سبحانه وتعالى ـ أوّلاً ثمّ مدّ الأرض من حولها، والتي كان آدم قد أتى إليها ألف مرّة علىٰ قدميه، والتي اختارها الله من الأرض، فهي خيرته من أرضه، ويقوم الدين ما قامت، والتي حجت الملائكة إليها قبل آدم بألفي عام، كما في الأخبار عن أهل البيت عليهم السلام (١٤).

هذا من جهة. ومن جهة ثانية فإنّ فريضة الحج ترتبط بمكة دون سواها، وهذا ما يمنحها درجة إضافية من التقديس والإحترام الذي يكنه لها مليار مسلم ـ أي خمس البشرية المعاصرة ـ ولا توجد مدينة أخرى في الأرض يمكنها أن تستنفر هذا القدر الكبير من المشاعر الإنسانيّة الصادقة، وتجذب حولها قلوب هذا العدد من الناس. أضف الى ذلك أن مكة تقع في منطقة كانت منطلقاً للتأريخ الإنساني برمته، ومحطة لأعقد صراعات العالم، وهي منطقة الشرق الأوسط. وكلّ ذلك من شأنه أن يجعل مكّة مركزاً مهمّاً في الحياة الدولية.

قال تعالى:

﴿**جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام ...**﴾ (١٥).

فبالكعبة والشهر الحرام ـ أي بالبعد الزماني والبعد المكاني من الحج ـ قوام الحياة الإنسانيّة وسندها؛ لأنّهما يعطيان الإنسان التوحيدَ حتّىٰ يستقيم عقله، والأمن حتّىٰ يهنأ عيشه.

ثالثاً: البعد التوحيدي العرفاني:

إنّ البعد التوحيدي والعرفاني هو البعد الأرسخ في الحج. إذ ليس الحج في الجانب الأوضح منه إلّا كتلة متماسكة من الممارسات والشعائر، التي تكرس عقيدة التوحيد في شخصية المسلم؛ فالطواف، والسعي، ورمي الجمار، وغير ذلك من واجبات الحج وشعائره. كلٌّ ذات مفهوم توحيدي خالص، الغرض منها تركيز الحسّ التوحيدي عند الإنسان المسلم.

وقد عرفنا فيما سبق أن التوحيد عقيدة ذات مضمون سلمي؛ لأنها تزرع السلم حقيقة في داخل الإنسان، وتشيعه نهجاً في حياته الاجتماعية، لذلك كان السلام اسماً من أسماء الله، واسماً من أسماء الجنّة، وشعاراً للمؤمنين في دار الدنيا

ودار الآخرة. كما أنّه الشعار الذي يهتف به المسلم من أعماقه في كلّ يوم خمس مرّات في خاتمة صلواته الخمس، حيث يسلم أولاً على النبيّ قائلاً: السلام عليك أيها النبيُّ ورحمة الله وبركاته، ليؤكّد بقاءَه مؤمناً بهذا النبيّ، ولن يكون محارباً له، ويسلّم ثانياً على نفسه، وعلى المؤمنين، فيقول: السّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. فالسلام الاجتماعي يبدأ من السلام الداخلي للإنسان. ثمّ يؤكد السلام العام مرّة ثالثة فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولقد كان الحج فريضة بدأ تشريعها منذ النبوة الإبراهيمية التي وظفت بشكل خاص لإرساء قواعد التوحيد وترسيخها في الأرض، ولم تنشغل بقضية أخرى كانشغالها بهذه القضية. والأديان التوحيدية الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام إنّما تنهل من انجازات تلك النبوّة المباركة التي كان لها الفضل المشهود على كلّ موحّد.

وإذا كانت تلك النبوّة قد ربطت بين التوحيد والحج من جهة، فإنّها ربطت من جهة أخرى بين التوحيد والأمن. فقدنقل القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام دعاءَه إلى الله ـ سبحانه ـ قائلاً: ﴿**وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام**﴾[١٦].

وهكذا فإنّ الحرم المكي يمثل الرمز المشترك لكلّ من التوحيد والأمن.

وفي إحدى الروايات نجد تفسيراً رائعاً للعلاقة بين إحدى الشعائر التوحيدية في الحج والأمن. قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من بقعة أحبّ إلى الله ـ عزّوجل ـ من السعي؛ لأنّه يذلّ فيه كلّ جبار عنيد» وقال عليه السلام: «جعل السعي بين الصفا والمروة مذلّة للجبارين»[١٧].

فإنّ هذه الشعيرة التي تكرس العبودية المطلقة لله ـ سبحانه وتعالى ـ والخضوع له. تلغي ذلك المحور (الطغيان والتجبر) أيضاً؛ لأنّ السعي مذلة للطغاة

والجبابرة، ووسيلة لمعالجة الطغيان عند الحكام، ذلك المرض الذي يهدد الأمن والسلام في المجتمع، ويسلمه إلى العنف والدمار.

رابعاً: البعد العبادي الأول:

ويتمثل بمجموعة من محرّمات الإحرام وهي:

١ ـ الجدال.

٢ ـ الفسوق. بما يشمل أسباب المفاخرة والكذب، وهو أخطر من الجدال.

٣ ـ إزالة الشعر.

٤ ـ قلمُ الأظفار كلاً أو بعضاً.

٥ ـ قلع الضرس ولو لم يدمِ.

٦ ـ قلع الشجر والحشيش النابتين في الحرم، وقطعهما.

٧ ـ قتل هوام الجسد (القمل والبرغوث ونحوهما) وكذا هوام جسد الحيوانات.

٨ ـ صيد البر اصطياداً وأكلاً ... والطيور حتّى الجراد بحكم الصيد البري.

٩ ـ لبس السلاح إلّا لضرورة[١٨].

ويمثل المحرّم الأوّل والثاني وسيلة وقائية وظيفتها الحيلولة دون حصول البغضاء والشحناء في مجتمع الحجيج، الذي يراد منه أن يكون قدوة في المحبة والوئام، ولمنع ظهور أي سبب أو مقدمة يمكن أن تؤدي إلى الإخلال بالأمن الاجتماعي.

والمحرّم الثالث والرابع والخامس: كلّ منها يمثل وسيلة تربوية تمنع الإنسان من الإضرار بما تشبه الكائن الحي. فإنّ الشعر والأظفار والأضراس أجزاء ميّتة من الإنسان، لكنها تشبه الكائن الحيّ من جهة النمو، ولأجل هذا الشبه بالحياة،

والاقتراب من إحدى صورها المقدّسة كان لابدّ للحاج من أن يحترز من التعرض لها.

المحرّم السادس: يمثل البدء بتحريم التعرّض للحياة، فالنبات بصورة عامة يمثل الصورة الأولى للحياة. فالتعرّض لهذه الصورة لا يتناسب مع المفهوم السلمي للحج ولمبدأ حرمة الحرم المكي.

المحرّم السابع: يعني تحريم التعرّض لحياة أكثر ظهوراً من حياة النبات وهو حياة هوام الجسد. فالحاج ينبغي له احترام هذه الحياة وإن كانت تعدّ صوراً بدائية من الحياة. بل وإن كان الحاج يعدّها صوراً من الحياة مضرّة بالإنسان. فالحاج عليه أن يحافظ على تقديسه لها تمسكاً بمبدأ تقديس أصل الحياة. وليس من شك أنه سيتلقى من وراء هذا التمسك دروساً أخلاقية رائعة تعلّمه كيف ينبغي له أن يتعايش مع الكائن الحي الذي يلتقي معه بمصلحة معيّنة، بل مع الكائن الحي الذي لا أهمية لحياته وهو مضرّ به. وكيف ينبغي عليه أن لا يفكر في التخلص منه. بل يفكر في وسائل التعايش معه ليعكس ذلك على حياته الاجتماعية، التي تمتلئ بصور كثيرة من العلاقات، التي تتّسم بالتنافر وعدم الانسجام، والتي يسرع الإنسان فيها عادة إلى التفكير في وسائل للتخلص من الطرف المقابل له. فالمحرّم السادس يعلمه أن هذا سلوك خاطئ، وأنّ السلوك الصحيح هو عدم الردّ بالمثل والتمسك بالصفح والصبر والتجمّل بدلاً عن ذلك، فإذا كان الحاج لا يملك الحقّ في أن يلحق الضرر بحياة هوام الجسد فالأولى أن لا يلحق الضرر بحياة أخيه الإنسان. وإذا كان إيذاء هوام الجسد بالإنسان لا يبرّر الإضرار بها، فالأولى أن لا يبرّر الاختلاف بين بني الإنسان الميل نحو الإضرار المتقابل فيما بينهم.

ويمثل المحرّم الثامن تحريماً لصور أخرى من الحياة أكثر ظهوراً واحتراماً

من الصور السابقة. ويبقى المحرّم التاسع الواضح في مغزاه المباشر. فـإنّ في لبس السلاح تهديداً لأمن الحرم، وذلك مخالف لمـبدأ الأشهـر الحـرم، ومـبدأ الحـرم المكي، والمضمون السلمي لفريضة الحج.

ومن الملاحظ أنّ محرّمات الإحرام تشتمل على تحريم الوسائل المباشرة، وغير المباشرة المؤدية إلىٰ زعزعة الأمن. ولا تشتمل على تحريم الاعتداء نفسه على حياة الإنسان. فكيف دخلت مقدّمات الاعتداء حتّى البعيدة منها في دائرة المحرّمات؟ بل كيف حولت هذه المحرّمات قسماً من مقدّمات السلام البعيدة إلىٰ واجبات هامّة، بينما لم تُدخل في عِدادها المقدّمة الكبرى لزعزعة الأمـن وهـي الاعتداء نفسه؟

والواقع أن تحريم مقدّمات الشيء ناشئ من التشدّد في تحريم الشيء نفسه وهو نوع تأكيدٍ. وربّما كان عدم اشتمال المحرّمات على تحريم الاعتداء نفسه إشارة إلىٰ كفاية تحريم المقدمات في الدلالة على تحريم أصل الاعتداء، بل إشارة إلىٰ عدم الحاجة إلىٰ ذكر تحريم أصل الاعتداء، فإنّ تحريم المقدّمات مـن شأنـه أن يمـنع ظهور حالات الاعتداء. وإلّا فإنّ الشريعة الإسلامية لا يوجد مَن هو أكثر منها يؤكّد حرمةَ الاعتداء على حياة الإنسان، خصوصاً حينما يكون هذا الاعتداء في أشهر الحرم، أو في الحرم المكي. فقد ذكر الفقهاء أن القـتل في الزمـان والمكـان المذكورين موجب لتغليظ الدية فتكون دية وثلث الدية. بل لو رمـى وهـو في الحلّ بسهم ونحوه إلىٰ من هو في الحرم فقتله فيه، لزمه التغليظ أيضاً[١٩].

خامساً: البعد العبادي الثاني:

ويتمثل بلباس الإحرام، الذي يرتديه الحاج، بعد أن يخلع ثيابه العـادية ضمن عملية واضحة الأهداف والدلالات. فالحـجّ وظـيفة ذات أبـعاد عـالمية

تتكامل مع مشروع عالمية الإسلام الذي يستوعب العقيدة والشريعة الإسلامية. ويتّخذ من الحج مرتكزاً فعالاً، ووسيلة مهمة من وسائله التطبيقية؛ لأنّه ممارسة روحية يقدم عليها المسلم بكلّ قلبه ومشاعره، وبطوع اختياره، تبدأ بتقطيع كلّ أشكال العلاقات العنصرية، التي تربطه مع الأهل والعشيرة والوطن، وتنتهي بالتلبس بعلاقات توحيدية عالمية خالصة. فأوّل عمل يقوم به الحاج: هو توديع الأهل والأقارب والعشيرة والوطن، متّجهاً إلىٰ حياة تخيم عليها الروح العالمية الخالصة، فلا أبناء ولا وطنَ ولا لغةَ قومية ولا زيَّ قومياً في الحج. وإنما علاقات إنسانيّة هي علاقة التوحيد، ووطن عالمي سواء فيه العاكف والباد، وهو مكة. ولغة عالمية هي اللغة العربية. وزيٌّ عالمي هو الإحرام، الذي تتساوىٰ فيه الطبقات الاجتماعية المختلفة، وتُمحى عنده الفوارق العنصرية، ومحور موحّد تطوف حوله وفود الحجيج وهو الكعبة، التي يرمز الطواف حولها إلىٰ بلوغ المؤمن نهاية القرب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي تتقطع عنده أسباب الدنيا، وعلاقات الأرض العنصرية، وتتكامل على انقاضها العلاقات الروحية.

يقول هاملتون جب [إنّ شعيرة الحجِّ تُعدّ عاملاً قوياً في تطبيق مبدأ توحيد العالم، فهي رمز للأخاء الذي يربط المسلمين بعضهم ببعض، دون تفرقة لونية أو عنصرية][٢٠].

ويتحدّث الدكتور حسين مؤنس عن العناصر التي ربطت العالم الإسلامي مع بعضه البعض، وجمعت بينها في العصور الإسلامية الأولى. ويذكر الطلابَ والعلماء والتجّار والملّاحين، ويذكر الحجاجَ من ضمنهم، وهم الذين يسمون بأهل الرحلة، الذين عمقوا مفهوم الوحدة لدى الناس فيقول:

[فأمّا الحجاج فقد كانت قوافلهم تشقّ أرجاء ذلك العالم الإسلامي في مسيرة دائمة لا تتوقف، ولا تبالي بالعقبات الطبيعية من جبال وصحاري وبحار،

ولا تتراخى بسبب أخطار الحروب والقلاقل والفتن، فقد كان حجاج بيت الله الحرام من الأندلس والمغرب والسودان والصين والملايو يخرجون في رحلة الحج قبل موعده بعام أو أكثر أو أقل، ومعنى هذا: أنه في كلّ وقت تقريباً كانت هناك قوافل حجاج تقصد بيت الله الحرام، أو تعود منه، ألوفاً بعد ألوف من الناس، يخرجون من أطراف الأرض الأربعة، ووجهتهم بيت الله الأكرم، وهم في مرورهم بالمدن والواحات يذّكرون الناس بوحدة الدين، التي تجمع بعضهم إلىٰ بعض. والكثيرون منهم كانوا يستقرّون بعد الحج أينما شاءُوا من بلاد الإسلام، فكأن قوافل الحج كانت أسلحة محاريث قوية تشقّ الأرض الإسلاميّة، وتقلب تربتها، وتأذن لشمس العقيدة في أن تتخللها في عمق، وتبعث فيها الحياة. وهذا، ولا شك، كان في تقدير الخالق ـ سبحانه ـ حينما فرض على أمّة الإسلام الحجَّ إلىٰ بيته الحرام ...][٢١].

وليس من شك أن الدور العالمي الذي يلعبه الحجُّ في المجتمع الإسلامي دورٌ سلمي وقائي، يحمي المجتمع من أخطار التمزّق العنصري، التي لم يكن في التأريخ ما هو أشدّ منها خطراً على قضية السلم والأمن في العالم. فالحجّ من هذه الجهة نوع من التربية الروحية، والفكرية المركّزة والعميقة في الاتجاه العالمي للإسلام ..

الهوامش :

(١) المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني ٢: ١٤٥.
(٢) البقرة: ١٩٤.
(٣) المائدة: ١٢.
(٤) الميزان في تفسير القرآن ٩: ٢٦٨.
(٥) التوبة: ٣٦.
(٦) التوبة: ٣٧.
(٧) البقرة: ١٢٥.
(٨) آل عمران: ٩٧.
(٩) البقرة: ١٩١.
(١٠) الحج: ٢٥.
(١١) المحجة البيضاء ٢: ١٥٥.
(١٢) المصدر نفسه ٢: ١٥٦.
(١٣) إبراهيم: ٣٥.
(١٤) المحجة البيضاء ٢: ١٥٢ـ١٥٣.
(١٥) المائدة: ٩٧.
(١٦) إبراهيم: ٣٥.
(١٧) وسائل الشيعة ٩: ٥٥.
(١٨) تحرير الوسيلة، الإمام الخميني ٢: ٤٠٣.
(١٩) المصدر نفسه: ٥٥٨.
(٢٠) الإسلام والعالم المعاصر، أنور الجندي: ص ٢٦١.
(٢١) عالم الإسلام، د. حسين مؤنس: ص ٢٩١.